الفجوة بين جانبي الأطلسي (٢)

حلف الأطلسي والحرب الحضارية ضد الإسلام

١

قلنا في الحلقة الأولى السابقة إن الفجوة بين أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية مرشحة للاتساع بعد أن تداعت الحواجز الفاصلة بين شقي أوروبا وافتقار حلف شمال الأطلسي لدوره في حماية الغرب والوقوف في وجه الزحف الشيوعي. وقلنا إننا نحن العرب والمسلمين معنيون جداً ببقاء هذه الفجوة الجديدة وباتساعها كذلك يوماً بعد يوم بالشرط الذي أشرنا إليه.

ونتابع في هذه الحلقة الثانية – والأخيرة – الحديث عن السياسة الأمريكية الجديدة القائمة فيما يبدو على ركيزتين اثنتين: الأولى ارتهان موارد العرب والمسلمين لصالح الولايات المتحدة، والثانية محاصرة المد الإسلامي وتعويقه عن أن يبلغ مداه أو يصل إلى غايته. وسوف تحقق هاتان الركيزتان للولايات المتحدة تضييق الفجوة بينها وبين أوروبا أو ردمها من جهة. كما تحقق تكريس انفرادها بالقيادة والتأثير في عصر ما بعد الاشتراكية، أو فيما أسماه الأمريكيون أنفسهم النظام العالمي الجديد من جهة أخرى.

٢

تحاول الولايات المتحدة أولاً – كما لاحظ بعض المراقبين بحق – أن تتخذ من نفط العرب على وجه الخصوص ومن سائر مقدرات العرب والمسلمين بوجه عام نافذة جديدة تعود من خلالها لتمسك بالقرار الاستراتيجي الأوروبي مرة أخرى بعد أن أمسكت به في عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية من خلال «الفزّاعة» الشيوعية. كما تحاول ثانياً – فيما نلاحظ – التصدي بكل الوسائل لما أسمته في وقت مبكر، وفي أعقاب انفراط عقد الاتحاد السوفييتي وانهيار النظام الشيوعي في أوروبا، بالأصولية الإسلامية. والتي ترقت السياسة والدعاية الأمريكية خلال بضعة أعوام في التخويف منها وتصويرها على أنها الخطر الحقيقي الذي يهدد أوروبا والغرب ومنجزات الحضارة (الإنسانية) في القرن القادم. وفي تصوير العالم الإسلامي على أنه يمثل إمبراطورية الشر التي ورثت إمبراطورية الشر الشيوعية. وحتى وصل الأمر أخيراً إلى تصوير الإسلام نفسه – ما لم يقبل أتباعه ودعاته بجميع الشروط العلمانية الأوروبية – على أنه مرادف للإرهاب والتطرف، وربما للهمجية والانحطاط.

وأورد فيما يلي شرحاً موجزاً لهاتين الركيزتين في الاستراتيجية الأمريكية الجديدة، قبل أن أنهي الكلام بتعقيب أخير عابر. وأكتفي في شرح الركيزة الأولى بما كتبه في وقت

مبكر كاتب وصحفي عربي واسع الاطلاع بدون أي تعليق يذكر سوى التذكير بأن هذا الكلام نشر بتاريخ ١٩٩٠/٤/١٢ أي قبل الحروب والأحداث الجسام التي تعرض لها الخليج والعالم العربي والإسلامي، الأمر الذي يؤكد على مدى التخطيط والرسم المسبق لهذه الأحداث.

قال السيد علي بلوط في العدد رقم ١٦٠٣ من جريدة «القبس الدولي» الصادر بالتاريخ المشار إليه ما يلي: «في واشنطن نظرية خرجت من دائرة المثقفين الاستراتيجيين ووصلت إلى أبواب دوائر صانعي القرار السياسي. هذه النظرية تعتمد على ما يلي:

أولاً: أن أحداث أوروبا الوسطى ستساعد على إعادة بعث الشخصية الأوروبية المستقلة في فترة أقصاها نهاية التسعينات. وهذا يعني أن النفوذ الأمريكي الذي مارس دوره في أوروبا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية معرض للانحسار وللعودة إلى الديار، مما يخلق أوضاعاً شبيهة إلى حد بعيد بالأوضاع التي نتجت عن الحرب العالمية الأولى عندما عاد الأمريكيون إلى ما وراء الأطلسي بعد نهاية الحرب، تاركين للأوروبيين في حركة رومانسية لا علاقة لها بفهم الأبعاد السياسية مهمة ترتيب شؤونهم. وكانت النتيجة ظهور ألمانيا قوية بعد عدة سنوات بقيادة أدولف هتلر مما أدى إلى قيام الحرب العالمية الثانية، وبالتالي عودة الأمريكيين إلى القتال «لإنقاذ أوروبا وربما العالم

من خطر النازية».

ثانياً: إن الولايات المتحدة تعي رغبة الأوروبيين الملحة في بعث شخصيتهم المستقلة، لكنها تدرك في الوقت نفسه مخاطر الوقوع في خطأ الحرب العالمية الأولى مرة ثانية. وإذا كانت معطيات الأحداث ونتائجها ستفرض خروج النفوذ الأمريكي العسكري من أوروبا ذات الشخصية المستقلة، فإن من الضروري أن يبقى النفوذ الأمريكي بشكله السياسي حاضراً ومتواجداً على مستوى صناعة القرار الاستراتيجي الأوروبي.

ثالثاً: إن منطقة الشرق الأوسط الغنية بمواردها البترولية التي ما تزال تمثل شريان حياة أوروبا الصناعي والاقتصادي والاجتماعي، مؤهلة لكي تلعب دوراً حاسماً في تركيز النفوذ الأمريكي السياسي في أوروبا على مستوى القرار الاستراتيجي. فإذا كانت الضرورات السياسية المستجدة ستفرض على واشنطن أن تخرج عسكرياً من الباب الأوروبي الواسع، فإن عليها أن تعود سياسياً إلى أوروبا من نافذة الشرق الأوسط الضيقة. ذلك أن مثل هذه العودة ستمنحها فرصة الاستمرار في إمساك القرار الاستراتيجي الأوروبي من وسطه عن طريق استخدام ورقة البترول.

رابعاً: كي تعود الولايات المتحدة إلى أوروبا من نافذة الشرق الأوسط عليها أن تعزز مركزها في هذه البقعة الاستراتيجية التي لا يستغنى عنها، وأن يكون هذا التعزيز

شاملاً المنطقة برمتها.

خامساً: ولكي يصبح ذلك ممكناً من المفروض جعل منطقة الشرق الأوسط بحيرة خالية من النزاعات الدموية والنزاعات السياسية الخطرة.

سادساً: وفي سبيل الحصول على هذا الموقع الممتاز، من الضروري التوصل إلى حل لأزمة الصراع العربي – الإسرائيلي، بشكل «يرضي العرب ولا يغضب الإسرائيليين».

سابعاً: أن العثور على هذا الحل يجب أن يسبقه اعتراف بالوجود السياسي للفلسطينيين. فـ«من دون الفلسطينيين لن يكون هناك سلام عربي/ إسرائيلي، ولن تتحول المنطقة من بركان متفجر إلى بحيرة هادئة» اهـ.

٣

أما «الأصولية» الإسلامية – بكل ما يحمله هذا التعبير من معان تاريخية مظلمة في الثقافة الغربية – وما تبعه وأضيف إليه من اتهام المسلمين بالإرهاب والتطرف والعدوان على حقوق الإنسان. فمن المعلوم أن الرواسب الأوروبية ضد الإسلام والعالم الإسلامي قديمة، ومن المعلوم كذلك أن الذي عمل على بعثها أخيراً أو في السنوات الماضية: صعود المد الإسلامي من جهة، وسقوط النظام الاشتراكي والعقيدة الشيوعية من جهة أخرى. ولكن الجديد والخطير في الموقف الأمريكي هو

استخدام هذه الورقة على أوسع نطاق وسيلة للضغط الهائل على أكثر من جهة، وفي مقدمتها أوروبا.. من أجل شد أزر حلف الأطلسي وعدم التخلي عنه، وهو الذي تتمتع فيه الولايات المتحدة بالقيادة، أو ما زالت تتمتع فيه بحق الزعامة منذ أن فشلت أوروبا بإيجاد دفاع أوروبي مشترك في أوائل الخمسينات.. ورضيت من ثم - باستثناء الجنرال ديغول - بحلف شمال الأطلسي تحت زعامة أمريكا وحمايتها. وفي الوقت الذي بدأ هذا الدور العسكري الأمريكي في أوروبا - وخصوصاً مظلتها النووية - بالتآكل، وفي الوقت الذي انفرط فيه عقد الاتحاد السوفييتي.. وجدت الولايات المتحدة في الأصولية الإسلامية إمبراطورية الشر الجديدة! أو وجدت في الإسلام وسيلة للضغط على أوروبا من خلال عدِّه العدو الجديد، أو العدو الجديد القديم! يقول الدكتور مايكل سابا في مقال نشره في جريدة «الحياة» - العدد رقم ١٠٦٥١ تاريخ ١٩٩٢/٥/٧ - تحت عنوان: إمبراطورية الشر الجديدة:

«وفي مقالة نشرتها أخيراً صحيفة واشنطن تايمز كتب سياسي تركي مسلم بارز أن حلف شمال الأطلسي (ناتو) قد بدل المناطق الحمر التي تشير إلى العدو السوفييتي (السابق) باللون الأخضر الإسلامي على خرائطه».

كما تكرر هذا المعنى على شكل أوضح وأكثر دلالة على ما تحدثنا عنه وذهبنا إليه، وربما على نحو أخطر كذلك، في المقابلة

التي أجرتها صحيفة «سوديتش زيتونج» الألمانية بتاريخ ١٩٩٥/٢/٢ مع سكرتير عام حلف شمال الأطلسي نفسه – ويلي كلاوس – فقد قال السيد سكرتير الحلف: «إن الأصولية الإسلامية تشكل بالنسبة للغرب التهديد ذاته الذي شكلته الشيوعية إبان الحرب الباردة.. أو هي على الأقل خطرة كما كانت الشيوعية. ونرجوكم ألا تقللوا من شأن هذا الخطر».

وقال أيضاً: إنه لا يدري كيف يمكن التوفيق بين الأصولية والديمقراطية. ولكنه اعتبر أن حلف الأطلسي يمكنه التصدي للتهديد الذي يشكله المتطرفون الإسلاميون بينما هو يعيد تحديد دوره بعد أن كسب الحرب الباردة.

ثم أضاف «إن حلف الأطلسي هو أكثر من تحالف عسكري. فقد أخذ على نفسه الدفاع عن المبادىء الأساسية للحضارة التي تربط أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية».

ولا يتسع المجال للتعليق على هذه الآراء وبخاصة العبارة الأخيرة، ونكتفي بالإشارة إلى أن السيد سكرتير حلف الأطلسي يخبرنا بأن هذا الحلف أضحى بعد انتهاء الحرب الباردة حلفاً حضارياً مهمته الجديدة حماية الحضارة الغربية الواحدة أو المشتركة بين أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية، والدفاع عن قيمها. كما يبشرنا بالحرب الأطلسية التي سوف يشنّها هذا الحلف على العالم الإسلامي، أو على «الأصولية الإسلاميّة» وحدها من بين سائر الأصوليات في العالم!

ونضيف إلى هذه الآراء ما صرّح به مسؤول كبير في وزارة الدفاع الأمريكية – في هذا السياق أيضاً – بأن حلف الأطلسي لا يولي أهمية كافية لمسائل الأمن في المتوسط وخاصة بعد تصاعد التطرف الإسلامي في شمال أفريقيا. وقال أيضاً:

«نحن نعرف لماذا وجد الحلف لمدة خمسين عاماً. نريد أن نعرف سبب حاجتنا إليه في مرحلة ما بعد الحرب الباردة» (راجع جريدة الخليج العدد رقم ٥٧٤٣ الصادر بتاريخ ١٩٩٥/٢/٣).

قلت: لا أدري إن كان هذا المسؤول الكبير في وزارة الدفاع الأمريكية – الذي طلب عدم ذكر اسمه كما قالت جريدة الخليج – قد عرف سبب حاجة الولايات المتحدة لهذا الحلف بعد الحرب الباردة أم لا؟ وإن كان حديثه أو إشارته إلى التطرف الإسلامي يوحي بالإجابة التي يعرفها أو يود أن يسمعها وأن يراها أخذت طريقها إلى التطبيق والتنفيذ. ونحن نكتفي على أية حال بما قاله سكرتير الحلف.. كما يكفينا ما حلّلنا في هذه الصفحات. وإن كانت سياسات وممارسات القادة الأمريكيين خلال العامين الماضيين – ومؤتمر شرم الشيخ على وجه الخصوص – أبلغ في الإجابة من جميع التصريحات والتحليلات.

٤

وخلاصة القول فيما قدمناه من عرض وتحليل وتذكير أن

الفجوة بين جانبي الأطلسي مرشحة للاتساع، وأن الفجوة الأخرى بين جانبي المتوسط – أي بين أوروبا والعالم العربي – مرشحة للتقليص لأسباب تتعلق باتساع الفجوة السابقة من جهة. وبانهيار النظام الشيوعي وصعود موجة الإيمان بوجه عام، من جهة أخرى.

ومعنى ذلك أن العالم العربي أمامه فرصة تاريخية متاحة ليعيد ترتيب علاقاته مع أوروبا. وأن أمام الثقافة العربية الإسلامية وحضارة الإسلام فرصة لملء الفراغ الذي أحدثه سقوط الاشتراكية وهزيمة الإلحاد. أو على الأقل: للمساهمة في ملئه في هذه المرحلة الحاسمة بجدارة وقوة واقتدار، وعلى أكثر من صعيد. ولا خوف في هذه الحال على حضارة المحيطات التي تمثل الدائرة الثالثة في تاريخ الحضارات الإنسانية أن تتراجع إلى حضارة البحار أو حضارة المتوسط على وجه الخصوص. لأن حضارة المحيطات ليست أكثر من امتداد لحضارة المتوسط. وحين لا تعود البشرية – وأبناء الحضارة الأوروبية على وجه الخصوص – بحاجة إلى صواريخها العابرة للقارات وإلى حرب النجوم، وإلى قوتها العسكرية التي أعطتها طابعها الكوني.. فإن ذلك سيكون من أعظم الإنجازات البشرية في التاريخ المعاصر.

ولكن المشكلة أن السياسة الأمريكية – كما أوضحنا في تحليل المسألتين السابقتين – تقوم بكل ما أوتيت من قوة بوأد

هذه الفرصة ومحاولة خنقها في المهد، من خلال حرب حضارية وهجمة أطلسية، وإن شئت قلت: من خلال مطاردات بوسائل شتى وعلى أكثر من صعيد.. بهدف الإبقاء على نفوذها وقيادتها في أوروبا، أو في الجانب الثاني من الأطلسي. وبهدف إحكام السيطرة على العرب والمسلمين، ومنع العالم الإسلامي في العدوة الأخرى من المتوسط من أن يكون له دور ثقافي أو حضاري مرتقب في عصر ما بعد الاشتراكية. كما حاولت ذلك من قبل في عصر ما بعد الاستعمار، أو في العصر الذي بدأ فيه النفوذ الاستعماري بالتآكل وعلى المستوى النفسي على وجه الخصوص، وذلك في أعقاب حرب السويس كما هو معلوم.

والعجيب – كما يذكر أبناء جيلنا – أن الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور طرح في ذلك الوقت برنامجه أو مشروعه لملء الفراغ! وعنى به الفراغ الذي أحدثه انهيار الاستعمار في الشرق الأوسط!! خوفاً من الولايات المتحدة أن تتسلل الشيوعية لتملأ هذا الفراغ. لقد كان الفراغ مزعوماً، والبرنامج الذي طرحه ايزنهاور – وهو برنامج معونات اقتصادية – هزيلاً أو موهوماً كذلك. ثم تبين لنا فيما بعد أن السبب الحقيقي لفشله يعود إلى أن السياسة التي كانت تقف وراءه سياسة استعمارية تقوم على محاولة وراثة النفوذ البريطاني. وهو النفوذ الذي قامت الثورة المصرية بمنازلته كما هو معلوم.

واليوم – ونحن أمام فراغ حقيقي وثقافة إسلامية إنسانية – تحاول الولايات المتحدة أن تحول بين الإسلام وحضارته وثقافته وبين ملء الفراغ الحاصل من انهيار الشيوعية. بل تحاول تضييق الفجوة بين جانبي الأطلسي – أو ردمها – بالنفط العربي وبموارد العرب والمسلمين، من جهة. وبالإسلام نفسه بوصفه عقيدة وثقافة وحضارة، حيث يجري تصويره على أنه مرادف للإرهاب والتطرف وسائر صفات التفزيع والتنفير، من جهة أخرى.

... ثم يساهم في هذا كله في العالم العربي والإسلام زعماء وكتّاب وساسة ومثقفون. وأخيراً بعض الإسلاميين أنفسهم بجهل نفرٍ منهم وغوغائية آخرين.. وبخروج خطاب نفر ثالث منهم عن إيقاع العصر، حتى لكأنه موظف لخدمة التصوير السابق من حيث يشعرون أو لا يشعرون. ولله الأمر من قبل ومن بعد.